

الباب الثاني

المعارك ضد إبراهيم باشا المصري

obeikandi.com

المعارك ضد إبراهيم باشا المصري

أولاً : تهديد

وتدور عجلة الزمن ويبدأ القرن التاسع عشر

في مطلع القرن التاسع عشر "١٨١٠م" كان بنو معروف قد استقروا في الجبل وثبتوا أقدامهم فيه بالقوة. وامتد نفوذهم حتى أزرع وبصر الحرير وخشب وتبنا^(١). وقد اعترفت لهم الدولة العثمانية ببعض الامتيازات كحمل السلاح والإعفاء من الجندية الإجبارية وراحوا يمارسون حياة مستقلة بعيدة نسبياً عن ضغط الحكام وظلمهم، وازدهرت الزراعة وبعض الصناعات خاصة حجر الطاحون. وكان والي دمشق يعترف بسيطرة الحمدان شيخ السويدا على جميع القرى ويكلفه بجمع الضرائب المقررة وقد أصبح الجبل في هذه الفترة ملجأ يقصده كل من لا يتحمل ظلم الحكام وأذاهم.

وقد قال بعض الشعراء

جبل حوران يا معذّي الدخيلين للحر والمظلوم أنت المنارة
فيك الكرامة والعدل فيك تأمين واللي يريد العز ينحرتعارة^(٢)

لكن الحكام العثمانيين لم يرق لهم هذا الوضع فقرروا إخضاع هذه المنطقة لنفوذهم لمنع المتمردين من اللجوء إليها والاحتماء بها ف وقعت بسبب ذلك حروب متعددة معهم، كذلك حصل مع إبراهيم باشا المصري عند غزوه لبلاد الشام.

(١) الزغير ص ٤٠٥

(٢) تعارة: أول قرى الجبل من ناحية حوران.

ثانياً: الثورة على إبراهيم باشا المصري

أ - المقدمة

بعدما احتل القائد المصري سوريا بدا متفهماً لواقع أبناء الجبل وظروفهم فوافق على إعفائهم من الخدمة العسكرية وترك أسلحتهم بأيديهم وتخفيف الضرائب عنهم والامتناع عن بناء الحصون في جبلهم وقرب إليه بعض زعمائهم فكان عز الدين الحلبي نافذ الكلمة عند متصرفه لا يرد له طلب، لكنه اعتباراً من مطلع سنة ١٨٢٧م قرر بسط نفوذه على الجبل ليمنع كل متمرّد على أوامره أو ناظم على حكمه من اللجوء إليه، وأصدر قراراً يقضي بسوق أبناء الجبل إلى الجندية وطلب من شريف باشا والي دمشق تنفيذ هذا القرار، فاستدعى والي لمجلسه في دمشق وفداً من أهالي الجبل على رأسه الشيخ يحيى الحمدان للتباحث بتنفيذ القرار، وبينما كان الشيخ يترجى والي للتراجع عن هذا القرار أظهر إصراراً على موقفه وثباتاً في كلامه مما أغاظ والي فتقدم منه وصنعه في المجلس، ولما عاد الحمداني كاضماً غيظه إلى السويداء عقد مجلساً للأعيان أخبرهم فيه عن إصرار والي على تنفيذ القرار وتحديه وإهانته بمجلسه بدمشق، فغضب الجميع على إهانة ممثلهم الحمداني واتخذوا قراراً بالعصيان ومحاربة الجنود المصريين وأعلنوا الثورة بعد موافقة الشيخ الروحي إبراهيم الهجري^(١).

ب - حملة علي آغا البصيلي وفرقة الهوارة

بعد مفاوضات فاشلة بين شريف باشا وأبناء الجبل أرسل هذا حملة عسكرية كبيرة بقيادة علي آغا البصيلي تمركزت في قرية الثعلة غرب السويداء في تشرين الثاني سنة ١٨٢٧ ومع الحملة فرقة قوية مدربة جيداً تشبه فرقة النجدة تدعى "فرقة الهوارة" اشتهرت بانتصاراتها السريعة بالحروب مع الأتراك، وما أن تمركزت الحملة بمرايضها وأسدل الليل ستاره حتى هاجم الثوار هذه الحملة والفرقة بمخيماتها وأجهزوا عليها بالكامل، وقد نجا قائد الحملة بأعجوبة وقتل عبد القادر آغا أبو

(١) الزغير ص ٤٠٦.

حبيب متسلم "متصرف" حوران والجبل وفرّ البصيلي هارباً مع ثلاثين نفر فقط
تعبهم الثوار في سهل حوران وقتلوا أكثرهم واندثرت فرقة الهوارة بأكملها. وفقد
المجاهدون ثلاثة عشر شهيداً. وعادوا إلى معقلهم يرددون أشعار النصر مثل قصيدة
أبو علي الحناوي:

أول فتوح الشر ذبح البصيلي أخذنا خمس مائة حصان بفردنهار

وبعض الأغاني على فرقة الهوارة مثل:

عــــــــالهوارة الهــــــــوارة الحــــــــرب بــــــــدها شــــــــطاره

يــــــــا لطيف و يــــــــا لطيف تــــــــنتف العــــــــسكر تــــــــنتف

ذبح الحملة والتنظيف اســــــــتغرق شــــــــرية ســــــــيكاره

عالهوارة الهوارة

تربية وطننا غــــــــالي يُفــــــــديها الأهــــــــالي

والغــــــــازي والمتــــــــعــــــــالي نــــــــدفنه تحــــــــت حــــــــجــــــــاره

عالهوارة الهوارة

ج - حملة محمد باشا المصري

غضب الوالي لهذه المذبحة الساحقة بالثعلة فجرد جيشاً من ثمانية آلاف من
المشاة وخمسة آلاف من الفرسان مجهزاً بأحدث الأسلحة والمدافع الثقيلة بقيادة
محمد باشا مفتش الجيش المصري العام ناوشها الثوار قرب بصر الحرير وانسحبوا
أمامها إلى داخل اللجاة لمفاجئتهم بالمدافع الثقيلة لأول مرة. اشتبكوا بعد ذلك مع
العسكر بمعارك متعددة حول الخرسا، وعاهرة وداما واستبسلوا عندما اقتربوا من
عائلاتهم بمعركة صميد الشهيرة وكان يقودهم الشيخ الروحي إبراهيم الهجري،
ومع زغاريد النساء وصيحات الأولاد وانضمام عدد من المتطوعين من الجيش إليهم.

انقضوا بهجوم انتحاري على الحملة ففتكو بمحمد باشا قائد الحملة وأمير اللواء أيوب بيك^(١) وأربعة عشر ضابطاً ومعظم الجنود واستولوا على كميات من الميرة والذخيرة والسلاح.

د - حملة أحمد باشا منيكلي

يوم القسطل: على أثر انتصار الثوار في معركة صميد قرر إبراهيم باشا أن يقود بنفسه حملة جديدة لإخضاع الثوار لولا أن الجيوش العثمانية بدأت تتقدم نحو سوريا من الشمال. فانشغل بها وطلب عندئذ من والده أن يرسل الحملة إلى حوران بقيادة أحمد باشا منيكلي وزير الحربية فاصطحب هذا معه ما يقرب من عشرة آلاف مقاتل^(٢) وتوغل في اللجاة ثم عسكر بالقرب من قرية جدل في أطراف اللجاة الغربية حيث بدأت ضلالت المحاربين تناوش جنوده ، لكنها أخذت تتراجع إلى الوراء بقصد استدراجهم إلى الأماكن الوعرة حتى تم لها ذلك أمطرتهم بوابل من الرصاص محكم التصويب ، وعندما أدرك أبناء الجبل أن الجنود قد اعتراهم الكلل انقضوا عليهم وناجزوهم بالسيوف فهزموا الحملة وكبدوها خسائر جسيمة قدرت بنحو أربعة آلاف ما بين قتل وجريح وأسير وكان بعداد الجرحى أحمد باشا منيكلي نفسه^(٣) ولأن الشائر الواحد كما يقول المعلقون يحوز من المصريين مائة رجل^(٤) ويسلبهم الأسلحة والأرواح ، وكانت خسارة الثوار ٢٥ شهيداً. وتعرف هذه المعركة باسم معركة القسطل "اسم الموقع" يقول فيها الشيخ الحناوي:

غنمنا المدافع والجباخانات والذخـر والذبح لا يحصى له مقدار
وأحمد باشا راح محول بنعشه وظيفـور بيـك ومثلهم وزار

(١) إبراهيم باشا في سوريا - أبو غز الدين ص ٢٠٣ .

(٢) محافظة السويداء - نشر وزارة الثقافة السورية ص ٣٦ .

(٣) إبراهيم باشا في سوريا - أبو غز الدين ص ٢٠٦ .

(٤) مقالة للمعلقون في جريدة رحلة عدد ٤٠٢٥ سنة ١٩٢٥ .

يقول بودان "قنصل فرنسا بدمشق آنذاك"

"إن الذعر الذي كان يحدث بين صفوف جنود إبراهيم باشا عند هجوم الدروز عليهم أجبر الكثيرين لرمي سلاحهم ليلوذوا بالفرار. وقد اعتراهم التعب فهجم الدروز على الجيش بالسلاح الأبيض فلم يصمد لهجماتهم إلا وقتاً قصيراً. أخذ يتراجع بعده تحت ضرباتهم القاصمة التي أجبرته على هزيمة مريضة سقط أثناءها شريف باشا^(١) وتشتت الحملة تاركة في ساحة المعركة مدفعين وخمسين جملاً محملاً باروداً وستة آلاف بندقية ونحو أربعة آلاف جريح وقتيل بينهم أمير لواء وأمير لاي وقائم مقام وسبعة بكباشية وعشرين يوزباشياً. وقد أصيب وزير الحرب بثلاث رصاصات مات متأثراً بها بعد عودته إلى مصر."

هـ - حملة إبراهيم باشا الكبرى والنتائج النهائية

بعد هذه المعارك الطاحنة وخسائر الجيش المتكررة استتجد إبراهيم باشا بوالده في مصر من جديد، فأرسل له أربعة آلاف ألباني بقيادة حاكم كريت. وقد ورد في كتاب إبراهيم باشا في سوريا ص ٢١٢ ما يلي:

وجهز إبراهيم باشا حملة من عشرين ألف مقاتل تكامل حشدتها في نيسان سنة ١٨٣٨م في قرية الصورة "في الجهة الشمالية الشرقية من اللجاة". واستأجر ١٥٠ أعرابياً "بدوياً" لإرشاده للطرق المجهولة. وقسم الحملة إلى أربعة فرق تولّى قيادة إحداها بنفسه وأوكل الفرق الباقية إلى سليمان باشا الفرنساوي، ومصطفى باشا وسليم باشا. ووزع كتائب من جنده إلى قرى الهيات والمسمية وتبنا وقراصة وبصر الحرير وريمة اللحف وبراق، لمحاصرة بني معروف ومنعهم من الاستسقاء واستدراجهم للقتال خارج اللجاة "أنظر خريطة الجبل" واشتدت المعارك مع الثوار في جميع مناطق اللجاة، وكانت أعنفها معركة داما حيث هاجم الثوار الحملة بالسلاح الأبيض وقضوا عليها وفر إبراهيم باشا هارباً مع القليل من رجاله خارج اللجاة^(٢).

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) إبراهيم باشا في سوريا - أبو عز الدين ص ٢١٢.

اغتنم ابن سمير^(١) انشغال بني معروف في معارك إبراهيم باشا وهاجم جنوب الجبل حتى دخل القرية، طبعاً بتحريض من والي دمشق وإبراهيم باشا، فانبرى له فريق من أبناء الجبل وهزموه حتى صبحا وصبحية "في الأردن" خلال أربعة أيام، ثم عادوا إلى معاركهم باللجاة وأخيراً جمع إبراهيم باشا عدة فرق، وهاجم أبناء معروف بعد أن سمم مياه الشرب، فمات عدد كبير من النساء والأطفال ولاحقهم حتى استولى على قرية قنوات^(٢) لكنه أخيراً وجد نفسه منهكاً من معاركهم خاصة بعدما نقل بنو معروف الحرب معه إلى وادي التيم، وقد وصف معارك هذه الحروب الشيخ أبو علي قسام الحناوي بملحمة عصماء جاء فيها:

من بعد ذا إبراهيم جرد علينا يبغي الحرايب عسكرياً جرار
دخل إلى اللجاة بجيش عرمرم^(٣) ونحن قلایل والأعادي كثار
صحنا كما تهدر سباع الكواسر وقمنا عالقوم^(٤) بالبلطات والبتار
برج الغضب جانا إبراهيم باشا بالأرناؤوط والترك والبلغار
ذبحنا الوزير وكل ضباط عسكرو وثلاثين جيشو راح قصف عمار^(٥)
ستين كون^(٦) نقابلوا وما نهابو ونكسر جيوشه بقوة المختار^(٧)

(١) ابن سمير: شيخ عشيرة عنزي.

(٢) الزغير ص ٤٠٨.

(٣) العرمرم: الكبير الزاخر.

(٤) القوم: قوم الأعادي الغزاة.

(٥) قصف عمار: موت أو القتل المفاجئ.

(٦) كون: معركة.

(٧) المختار: النبي (صلعم).

كسبنا المدافع والجبانات^(١) والزخر والذبح لا يُحصى له مقدار

هذي قلعتنا وهذي لجاتنا تربة عدانا^(٢) من دخلها حار

سلمان والمقداد أيضاً أجدادنا أبو ذر ورفاعه كذا عمار

وأخيراً تمكن شبلي العريان في وادي التيم ومعه مئتا رجل من احتلال قلعة راشيا. وقد خصص إبراهيم باشا جائزة كبرى لمن يأتيه بشبلي العريان حياً أو ميتاً. ولما علم بذلك العريان فاجأه متخفياً في خيمته ليلاً وسط المعسكر وأيقظه برأس الحرية معلناً طلب المصالحة مع بني معروف، فأعجب إبراهيم باشا بشجاعته وقبل بشروطه للمصالحة فعفا عن الثائرين وعين العريان قائداً لإحدى الفرق في جيشه "الكسندر توماس".

وعاد مسرعاً لينهي الثورة في اللجاة بأي ثمن خوفاً من تدهور الموقف وتعاون الدولة العثمانية والدول الأوربية عليه، فأصدر أوامره بالعفو عن بني معروف واكتفى منهم بتقديم بعض الأسلحة، وألغى السخرة والتجنيد ومعظم الضرائب، وأذن لهم بحمل السلاح وحق انتخاب شيوخهم بأنفسهم^(٣).

وهكذا لم يحصل إبراهيم باشا على النتائج التي كان يتوخاها من محاربة بني معروف، وعلى العكس تكبد الكثير من الخسائر الفادحة في الرجال والعتاد، واضطر أخيراً للانسحاب من سوريا في ١٩ شباط سنة ١٨٤١م تاركاً في بلاد الشام بعض الأنظمة الحديثة العادلة لم تحفها السيئات والأغلاط التي وقع فيها^(٤).

^(١) الجبانات: الذخيرة.

^(٢) تربة عدانا: مقبرة أعدائنا.

^(٣) إبراهيم باشا في سوريا أبو عز الدين ص ٣٢٠.

^(٤) قال عمر فروخ: إن أهل نابلس وأهل جبل الدروز هم الذين بثورتهم حملوا إبراهيم باشا ومحمد علي باشا على أن يضعفا تجاه الدول الأجنبية. وهذا ما جعل السلطان العثماني يهدي إلى الشيخ أحمد جريوع لباساً فاخراً (يونش) مع أن قتال الدروز لإبراهيم باشا كان دفاعاً عن كرامتهم وليس لمصلحة العثمانيين.

و - ملحمة الشيخ أبو علي قسام الحناوي

مقتطفات منها يفتخر بقومه بني معروف ويصف معاركهم مع إبراهيم باشا

والأتراك:

محمد علي قلّد مشير العساكر	إبراهيم باشا الخاين الغدار
وليها من غزه لحد أدنه ^(١)	دعا سور عكا بالطواب دمار
عرضي الملك ^(٢) لاقاه في مرج الأخضر	ولا طاق حريو نصف ريع نهار
تولى مهمات الملك مع مدافعو	وحسين باشا ما سوّى دينار
ومن بعدها السلطان في أرض نرب ^(٣)	وجه وزر ^(٤) مع الفات كثار
وتلاطم الجيشان في الحرب والعطب	وجيش الملك وّلي هجيج فرار
من بعدها إبراهيم جرد علينا	يبغي الحرايب عسكراً جرار
أول فتوح الشرذبح البصيلي ^(٥)	أخذنا خمس مية حصان ^(٦) بضر نهار
من بعدها جهز وزيرو محمد	جيشا كبيراً حرجي قهار
دخل اللجاة زاحف بجيش عرمرم	ونحنا قلايل والأعادي كثار

(١) إشارة للمنطقة التي كسبها محمد علي بموجب معاهدة كوتاهية .

(٢) عرضي الملك: جيش السلطان.

(٣) نرب أو نصبينك معركة شهيرة على نهر الفرات انتصر فيها إبراهيم على الأتراك.

(٤) الوزر: الوزراء.

(٥) البصيلي: علي آغا البصيلة الذي فتك به بنو معروف مع جيشه بمعركة الثعلة.

(٦) حصان: خيال.

نطحناه نتناحى^(١) وتبكي حريمنا
 وصلنا كما تهدر أسود الكواسر
 ذبحنا الوزير وكل ضباط عسكرو
 من بعد ذا جانا شريف وأحمد^(٢)
 فأتوا علينا للمناره ورتبوا
 وآليات في ضرب الكلل والنار
 وبارودهم مثل الرعود القواصف
 ما ظن لا هولاً ولا يوم أعظم
 ومحاربتنا وسط غابة أسودنا
 فهذي قلعتنا وهذا لجاتنا^(٣)
 أخذنا المدافع والجبانات والزخار
 أحمد باشا راح محمول بالنعش
 ومن بعدها ما عاد فأتوا عاللجة
 وبرج الغضب جانا إبراهيم باشا
 ونصب عراضي الجيش في ديار اللجة
 وصار المعارك والفرنجي ثار
 عالقوم بالبطات والبتار
 وثلاثين جيشوا راح قصف عمار
 باشوات يتكنوا لأخذ الثار
 آليات في ضرب الكلل والنار
 يوم عظيم الهول والأخطار
 يشبه لصفين وليوم ذي قار
 يا بئس شؤراً عليهم شار
 تربة^(٤) عدانا ومن دخلها حار
 والذبح ما يحصى له مقدار
 وطيفور بيك مثلهم وزار
 وصارت على الدولة جهنم نار
 بالأرذاقوط والترك والبلغار
 وضيق علينا الظالم القهار

(١) نطحناه: قابلناه. نتناحى: ننتحي.

(٢) شريف: شريف باشا حكامدار بلاد الشام. أحمد: أحمد منيكلي قائد آخر.

(٣) لجاتنا: اللجة.

(٤) تربة: مقبرة

على ساق قام الحرب يوماً فيوماً
وخیل الهنادي كل يوم تغار
وستين كون ذقابلوا وما نهابوا
ونكسر جيوشو بقوة المختار
وستين ألفاً قد فقد من عساكرو
أصلح وصالحنا وفات الثار